

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ

الجمهور على أنها مكية . وعن الضحاك : مدنية . وعن بعضهم : مكية إلا ثلاث آيات^(١) (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ) إلى (رَحِيمًا) .

قال المهايي : سميت بالفرقان لاشتغالها على أنه ظهر كثرة خيرات الحق بالفرقان ، الذى هو التمييز بين الحق والباطل . والأظهر أنه لذكره فيها بمعانيه الآتية المتسعة لها اللفظ لا خصوص ما ذكره ، وآياتها سبع وسبعون .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٨ - ٧٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

يحمد تعالى نفسه السكينة ويثنى عليها ، لما أنزله من الفرقان ، كما قال ^(١) « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » الآية .

قال الزمخشري : (البركة) كثرة الخير وزيادته . ومنها (تَبَارَكَ اللَّهُ) وفيه معنيان : تَزَايَدَ خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء . وتعالى عنه ، في صفاته وأفعاله . و (الْفُرْقَان) مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما . وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ، ولكن مفروقاً مفصلاً بمضه عن بعض في الإنزال . ألا ترى إلى قوله ^(٢) (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَازِلًا) انتهى .

قال الناصر : والأظهر ههنا هو المعنى الثاني . لأن في أثناء السورة بعد آيات ^(٣) (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) قال الله تعالى (كَذَلِكَ) أي أنزلناه مفروقاً كذلك (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) فيكون وصفه بالفرقان في أول السورة - والله أعلم - . كالمقدمة والتوطئة لما يأتي بعد . انتهى .

قال أبو السعود : وإيراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان ، لتشريفه والإيذان بكونه في أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً المرسل ؛ رداً على

(١) [١٨/الكهف/٢١] . (٢) [١٧/الإسراء/١٠٦] . (٣) [٢٥/الفرقان/٣٢] .

النصارى ، والسكنانية فى (لىكون) للعبد أو للفرقان . و (النذير) صفة بمعنى منذر ، أو مصدر بمعنى الإنذار ، كالنكر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا)

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) أى أحده إحداناً مراعى فيه التقدير والتسوية لما أريد منه . تخلق الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المفيدة . وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة . بأمثلة الحكمة والتدبير لأمرها ، ومصلحته مطابقاً لما قدر له ، غير متجاف عنه .

ولما تضمن هذا إثبات التوحيد والنبوة ، تأثره بالبرهنة عليهما ، وتضليل المخالفين فيهما ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) أى لا يملكون دفع ضر ولا جلب نفع ولا إماتة أحد وإحياءه أولاً وبمئة ثانياً . ومن كان كذلك فبمزمز عن الألوهية ، لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها . وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء . أفاده القاضى .

قال الشهاب : قدم الموت لمناسبته للضر المتقدم . وفسر الموت والحياة بالإماتة والإحياء والإنشار ، إما بياناً لحاصل المعنى ، لأن ملك الموت له القدرة على الإماتة ، أو إشارة إلى أنه بمعنى الأفعال . كما في قوله ^(١) (أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا)

[٥] (وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)
« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا » أى يجعل الصدق إفكاً ، والبرى عن الإعانة معيناً « وَزُورًا » أى باطلاً لمصدق له ، يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » أى ماسطوره ، كتبها لنفسه وأخذها « فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ » أى تلقى عليه ليحفظها « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى دائماً .

قال ابن كثير : وهذا الكلام ، لسخافته وكذبه وبهته منهم ، يعلم كل أحد بطلانه . فإنه قد علم بالضرورة : أن محمداً رسولاً ﷺ ، لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره . وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ، إلى أن بعثه الله نوحاً من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته . وبمده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرديئة ، حتى إنهم كانوا يسمونه فى صفه ، وإلى أن بعث (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التى يعلم كل عاقل براءته منها . وحاروا بما يقذفونه به ، فتارة من إفسكهم يقولون : ساحر . وتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : مجنون . وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى ^(٢) (انْظُرْ . (١) [٧١ / نوح / ١٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٤٨] و [٢٥ / الفرقان / ٩] .

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) وقال تعالى في جواب ما افتروه هنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)
« قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الخفى فيها . إشارة إلى علمه تعالى بحالهم بالأولى . ومن مقتضاه رحمته إياهم بإزاله ، لزيادة حاجتهم وافتقار أمثالهم إلى إخراجهم من الظلمات بأنواره . وفى طيه رهيب لهم بأن ما يسرونه من الكيد للنبي عليه الصلاة والسلام ، مع ما يتقولونه ويفترونه ، لا يعزب عن علمه . فسيجزئهم عليه بزقوق باطاهم ومحو أثرهم ، وسموق حقه وظهور أمره « إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » تعليل لما هو مشاهد من تأخير عقوبتهم ، مع استيجابهم إياها . أى فهو يمهل ولا يعاجل لمغفرته ورحمته . أو الوصفان كتابية عن كمال قدرته على الانتقام منهم . لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر . هذا ما يستفاد من (الكشاف) ومن تابعه ، لبيان مطابقة ذلك لما قبله .

وقال ابن كثير : قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعواهم سبحانه إلى التوبة ، والإفلاع عما هم فيه ، إلى الإسلام والهدى . كما قال تعالى (١) (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلَاثٍ . وَمِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى (٢) (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) [٥ / المائدة / ٧٣ و ٧٤] . (٢) [٨٥ / البروج / ١٠] .

جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود .
قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

ثم أشار تعالى إلى تعنتهم بخصوص المنزل عليه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا)

« وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » أى كما نأكل « وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ »
أى يتردد فيها لشؤونه كما نمشي . قال الزمخشري : يعمنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً
مستغنياً عن الأكل والتميش . أى فيخالف حاله حالنا . قال أبو السعود : وهل هو
إلا لعمهم وركاكة عقولهم ، وقصور أنظارهم على المحسوسات . فإن تميز الرسل عن عداهم
ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية . كما أشير إليه بقوله تعالى ^(١) (قُلْ إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكاً ، إلى اقتراح أن يكون
إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار فقالوا « لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا »
ثم نزلوا أيضاً إلى اقتراح أن يرفد بكنز ، إن لم يرفد بملك ، فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)

« أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ » أى من السماء يستظهر به ، ولا يحتاج إلى طلب المعاش ،
ويكون دليلاً على صدقه . ثم نزلوا فاقنعوا باقتراح ما هو أيسر منه ، فقالوا « أَوْ تَكُونُ لَهُ »

(١) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » أى بستان يرتق منه « وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
مَسْحُورًا » أى مغلوباً على عقله . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

« اَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » استعظام للأباطيل التى اجتروا على التفوق بها .
والتعجب منها . أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقوال الخارجة عن العقول « فَضَلُّوا
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » أى القدح فى نبوتك ، بأن يجدوا قولاً يستقرون عليه . أو فَضَلُّوا
عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه .

قال ابن كثير : كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال ، حيثما توجه . لأن
الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

ثم نبه تعالى على أنه إن شاء آتاه خيراً مما يقترحون ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا » أى إن شاء جعل لك خيراً مما قالوا . وهو أن يجعل لك مثل ما وعدك
فى الآخرة من الجنات والقصور . ولكن قضت حكمته ذلك ليكون الرضوخ للحق لا للهال .
وليصدق بأن الأمر مبنى على النظر والاستدلال ، لا ما يلهى المشاعر والخيال . مما يتطرق
إلى الشغب فيه الجدال ، فسبحان الحكيم المتعال . وقول تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا)

« بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ » إضراب انتقالي عن توبيخهم بحكاية جنائهم السابقة ، وانتقال منه إلى توبيخهم بحكاية جنائهم الأخرى ، للتخلص إلى بيان ما لهم في الآخرة بسببها ، من فنون العذاب ، بقوله « وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » أى نارا شديدة الاستمرار ، أى التوقد والالتهاب .

وقيل : هذا الاضراب عطف على ما حكى عنهم وهو (وقالوا ما لهذا الرسول) على معنى : بل اتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة . والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيراً . فإن جراتهم على التكذيب بها ، وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها ، أعجب من القول السابق .

ويجوز أن يتصل بما يليه ، كأنه قيل : بل كذبوا بالساعة ، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ؟ وكيف يصدقون بتمجيل ما وعدك الله في الآخرة وهم لا يؤمنون بها ؟ ثم وصف تعالى السعير بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا)

« إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا » أى إذا كانت برأى منهم (أى قريبة منهم) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم ، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها ، لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم ، حقيقة أو تمثيلاً . و (من) فى قوله (مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) إشاراً بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة ، حين رآتهم ، خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة . وفيه مزيد تهويل لأمرها . أفاده أبو السعود . و (التغيظ)

إظهار الغيظ وهو أشد الغضب ، وقد يكون مع صوت كما هنا . شبه صوت غليانها بصوت المغناط وزفيره ، وهو صوت يسمع من جوفه ، تصريحاً أو مكنياً أو تمثيلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا)

[١٤] (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا)

« وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرَيْنِ » أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا » أى هلاكاً . أى نادوه نداء المتمدنى الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه . كما قيل : أشد من الموت ما يُتمنى معه الموت . فيقال لهم « لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » لكثرة أنواعه المتوالية . فإن عذاب جهنم ألوان وأفانين . أو كثرته باعتبار تجدد أفرادهِ وإن كان متحداً . أو كثرته كفاية عن دوامهِ . لأن الكثير شأنه ذلك كما قيل فى ضده ^(١) (وَفَاكِهَةً كَثِيرَةً * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) وقيل : وصف الثبور بالكثرة ، لكثرة الدعاء أو المدعو به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا)

[١٦] (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا)

« قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا » أى حقيقة أن يسئل ويطلب ويتنافس فيه . وما فى (على) من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ، أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ

عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)

[١٨] (قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ

وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَاءِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ » أى الله تعالى للعبودين ، تقریباً لعبدتهم « أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » أى عن السبيل بأنفسهم ، لإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد « قَالُوا سُبْحَانَكَ » تعجباً مما قيل لهم . لأنهم إما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شيء . أو تنزيهاً له عن الأنداد « مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى نمبدهم . فأنى يتصور أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، أو (من أولياء) أى أتباعاً للعبادة « وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَاءِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ » استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون ، بعد بيان تنزيههم عن إضلالهم . وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسباباً للضلالة . أى ما أضللناهم . ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ، ليعرفوا حقها ويشكروها . فانهمكوا في الشهوات حتى نسوا الذكر ، أى ذكرك . أو التذكر في آلائك ، والتدبر في آياتك ، فجعلوا أسباب الهداية ، بسوء اختيارهم ، ذريعة إلى الغواية - أفاده أبو السعود « وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا » أى هالكين . ثم أشار تعالى لاحتجاجه على عبديهم وإلزامهم ما بيبكهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ

يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)

« فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ » أى المعبودون ، أيها الكفرة « بِمَا تَقُولُونَ » أى فى قولكم إنهم آلهة . أو فى قولكم هؤلاء أضلونا « فَمَا تَسْتَطِيعُونَ » أى ما تملكون (صرْفاً) أى دفعاً للعذاب عنكم بوجه ما « وَلَا نَصْرًا » أى لأنفسكم من البوار « وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ » أيها المكلفون ، كذاب هؤلاء « نُذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا » . ثم أجاب عن شبههم السابقة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)
« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ »
أى لىحتاجون إلى التغذى بالطعام ويتجولون فى الأسواق للتكسب والتجارة . وليس ذلك بمناف لحالم ومنصبهم . فإنه تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال السكامة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاءوا به من الله . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) وقوله ^(٢) (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية إباحة دخول الأسواق للعلماء وأهل الصلاح ، خلافاً لمن كرهها لهم .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٩] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨] .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا »
قال الزمخشري : هذا تصبير لرسول الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومشيه
في الأسواق . بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل . يقول : وجرت عادتي وموجب حكمتي على
ابتلاء بعضكم ، أيها الناس ، ببعض . والمعنى أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم . وبمناصبتهم
لهم العداوة . وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف ، وأنواع أذاهم ، وطلب منهم الصبر الجميل .
ونحوه ^(١) (وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وفي قوله تعالى (وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا » زيادة تسلية وعدة جليلة . أي هو عالم فيما يبتلى به وغيره ، فلا يضق صدرك . فإن
في صبرك سعادة وفوزاً في الدارين .

ثم أشار إلى نوع آخر من أقاويلهم الباطلة ، وإبطالها ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا
لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » أي الرجوع إليه بالبعث والحشر « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
الْمَلَائِكَةُ » أي للرسالة ، أو لتخبرنا بصدق محمد صلوات الله عليه « أَوْ نَرَى رَبَّنَا » أي
فيخبرنا بذلك « لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي في شأنها حتى تفوهوا بمنزل هذه العظيمة
« وَعَتَوْا » أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان « عُتُوًّا كَبِيرًا » أي بالغاً أقصى غايته .
حيث أملوا رتبة التكليم الرباني من غير توسط الرسول والملك . ولم يكتفوا بهذا الذكر
الحكيم والخالق العظيم .

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا)

« يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ » أى عند الموت أو في القيامة « لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا » أى كما كانوا يقولون عند لقاء المدوَّة وشدة المنازلة (حجراً) أى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجراً و(محجوراً) تأكيداً (حجراً) وقيل هو من قول الملائكة . ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى ، أى جعل الله ذلك حراماً عليكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

« وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ » أى مما كانوا يراءون به ابتغاء السمعة والشهرة ، وورونه من مكارمهم « فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » أى مثل الغبار المنثور في الجو ، في حقارته وعدم نفعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)

[٢٥] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)

« أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ويوم تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ أى ينصدع نظامها فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما يرى اليوم . فيخرب العالم بأسره . و(الباء) بمعنى (مع) أى مع السحب الجوية . أو بمعنى (عن) أى تنفطر عن الغمام الذى يسود الجو ويظلمه ، ويغم القلوب مرآه « وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » فيحيطون بالخلائق في المحشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)

[٢٧] (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ

سَبِيلًا)

[٢٨] (يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا)

[٢٩] (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا)

«الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ لِلرَّحْمَنِ» أى فلا يدعيه ثم غيره . ويكون له سبحانه السلطة القاهرة الشاملة «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا» وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ «أى تشد حسراته وتتصاعد زفراته » يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا « يبنى من أضله عن الذكر ، وصدّه عن سبيل الله » لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ « أى القرآن ، أو موعظة الرسول » إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا « أى مبالغا فى إضلاله ، يعمده ويمنيه فى الدنيا ، ما يحسره عليه فى العقبى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)

« وَقَالَ الرَّسُولُ » أى إثر ما شاهد من عتوهم وعنادهم « يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا » أى متروكا ، معرضا عنه . وجملة (وقال الرسول) عطف على (وقال الذين لا يرجون) وما بينهما اعتراض ، سبقت لا تنظام ما قالوه وطلب النصر عليهم واستئزال الفرج الإلهى مما أضافوا به الصدور ، وجلبوه من الكدور ، وللإشارة إلى ما يحيق بهم من شقاء الدارين .

تنبيه :

الآية ، وإن كانت في المشركين ، وإعراضهم هو عدم إيمانهم ، إلا أن نظمها الكريم مما يرهب عموم المعرضين عن العمل به ، والأخذ بأدابه . الذي هو حقيقة الهجر . لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك . إذ لا تؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها . ولا يتدبرها إلا من يقوم بها . ويتمسك بأحكامها .

ومن (فوائد) الإمام ابن القيم رحمه الله . قوله في هذه الآية : هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمة والتجسس إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس . هجر الاستشفاء والتداوى به في جميع أمراض القلوب وأدوائها . فيطلب

شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به .

قال : وكل هذا داخل في هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض . انتهى .

وفي (الإكليل) : إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده

بالقراءة فيه . وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد

للقرآن ، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم . ثم قال : وفيه من التحذير ما لا يخفى .

فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم

يُنظروا . ثم ذكر تعالى ما يكون أسوة لتبنيه ، وتسليمه له ، ووعداً بالنصرة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا » أى إلى ما يبلغك ما تتمناه « وَنَصِيرًا » أى لك على كل من بناؤك . ثم أشار تعالى إلى مقترح خاص بالتزليل الكريم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)

[٣٣] (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً » أى دفعة واحدة فى وقت واحد . وقد بين سبحانه بطلان هذه المارة الحمقاء بقوله « كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » أى نقويه به على القيام بأعباء الرسالة ، والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة . فإن ما يتواتر إنزاله لذلك ، أبث للهمة وأثبت للزعمة وأنهض للدعوة ، من نزوله مرة واحدة « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » أى فصلناه تفصيلاً بديعاً ، لا يلحق شأوه ولا يدرك أمده .

قال القاشانى : الترتيل هو أن يتخلل بين كل نجم وآخر ، مدة يمكن فيها ترسخه فى قلبه ، وأن يصير ملكة لا حالا « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » أى الذى يجمع تلك الصفة . كما قال ^(١) (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » أى بياناً وهداية ، عناية بك

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٨] .

وبما أرسلت من أجله ، وخذلانا لأعداء الحق وخصوم الرشاد .

تنبيه :

يذكر المفسرون هاهنا أن الآية رد على الكفرة في طلبهم نزول القرآن جملة ، كنزول بقية الكتب جملة . ويرون أن القول بنزول بقية الكتب دفعة ، صحيح . فيأخذون لأجله في سرّ مفارقة التزليل له . والحال أن القول بنزولها دفعة واحدة لا أصل له ، وليس عليه إثارة من علم ، ولا يصححه عقل . فإن تفريق الوحي وتمديد مدته بديهيّ الثبوت . لمقدار مكث النبيّ . إذا دام بين ظهراني قومه ، فالوحي يتوارد تنزله ضرورة . ومن راجع التوراة والإنجيل الموجودين ، يتجلى له ذلك واضحاً لا مرية فيه . وعذر القائل به ظنه أن الآية تعريض بنزول غيره كذلك . وما كل كلام معترض به . وإنما الآية حكاية لا اقتراح خاص ، وتعتفت متفان فيه . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)

[٣٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا)

[٣٦] (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)

« الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا » وهم فرعون وقومه . والآيات الخوارق التسع . أى فذهبا إليهم . فأرياهموها فكذبوها « فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا » أى بالإغراق في البحر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً ،

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)

[٣٩] (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا)

« وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ » يعنى نوحاً . وَجُمِعَ تعظيماً لرسالته . أو هو ومن تقدمه عليهم السلام . « أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا » يعنى قوم هود « وَثَمُودَ » بالصرف وعدمه . قراءتان . على معنى الحى أو القبيلة « وَأَصْحَابَ الرَّسِّ » اسم بُر . ونبههم قيل : شعيب ، وقيل : غيره . ويروى هنا بعضهم آثاراً منكورة لا تصح . كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله . فلا يحل الجراءة على روايتها ، ولا تنزيل الآية عليها . لأنه من قَفَوْ ما ليس المرء به علم . ومثله يحظر الخوض فيه . « وَقُرُونًا » أى أقواماً « بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ » أى الأنبياء التى تزجر عن الكفر والفساد « وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا » أى إهلاكا عظيماً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرًا سَوًّا ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها ،

بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)

« وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرًا سَوًّا » أى أهلكت بالحجارة .

وهى قرى قوم لوط « أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها » أى فى مرورهم ، ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ؟ وفيه توبيخ لهم على تركهم الذكر ، عند مشاهدة ما يوجب « بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » أى كفره ، لا يتوقعون عاقبة وجزاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)

[٤٢] (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ

يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا » أى يستهزئون فائلين ذلك . والإشارة للاستحقاق . لأن كلمة (هذا) تستعمل له . وعائد الموصول محذوف . أى بعثه . و (رسولاً) حال منه « إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا » أى أنه كاد ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً ، لولا أن ثبتنا عليها .

قال الزمخشري : فيه دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم ، وبذل قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم ، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم ، حتى شارفوا بزعمهم ، أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لولا فرط لجأهم واستمسكهم بعبادة آلهتهم « وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » جواب منه تعالى لآخر كلامهم . وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طال مدة الإمهال . ولا بد للوعيد أن يلحقهم ، فلا يغرنهم التأخير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)

« أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا » تعجيب للنبي صلوات الله عليه من شناعة حالهم ، بمد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشري : من كان في طاعة الهوى في دينه ، يتبعه في كل ما يأتى ويذر ، ولا يتبصر دليلاً ، ولا يصنى إلى برهان ، فهو عابد هواه وجاعله إلهه . فيقول تعالى لرسوله : هذا الذى لا يرى معبوداً إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ؟ أفقتول عليه وتجبره

على الإسلام؟ وتقول لا بد أن تسلم، شئت أو أبيت . ولا إكراه في الدين . وهكذا كقوله^(١) (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) ^(٢) (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »
أى منهم . لأن الأنعام تصرف قواها إلى طلب ما ينفعها ، والنفرة مما يضرها . وهؤلاء عطلوا قواهم وهى العقول التى يهتدى بها للحق ، ويميز بها بين الخير والشر . ثم أشار تعالى إلى بعض دلائل التوحيد ، وما فيها من النعم العظمى الجديرة بأن تتلقى بالشكر لا بالكفر ، كحال هؤلاء الكفرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)

« أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » أى عجيب صنعه أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس « وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » أى ثابتاً على حاله ، من الطول والامتداد . من (السكنى) أو غير متقلص من (السكون) بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فلم ينتفع به أحد « ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا » أى علامة يستدل بأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتاً فى مكان ، زائلاً ومتسماً ومتقلصاً . فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه ، على حسب ذلك .

(١) [٥٠ / ق / ٤٥] . (٢) [٨٨ / الغاشية / ٢٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)

[٤٧] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)

« ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا » أى أزالناه بعد ما أنشأناه ممتداً ، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعه « قَبْضًا يَسِيرًا » أى على مهل ، قليلاً قليلاً حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها . وفى هذا القبض اليسير ، شيئاً بعد شئ ، من المنافع مالا يمد ولا يحصر . ولو قبض دفعة واحدة ، لتمطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعاً ، « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا » أى ساتراً كاللباس « وَالنَّوْمَ سُبَاتًا » أى راحة للأبدان تستعويض به ما خسرت من قواها « وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا » أى زمان انتشار لطلب المعاش .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً طَهُورًا)

[٤٩] (لِنُنْجِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ نُشْرًا » أى ناشرات للسحاب وفى قراءة (بشراً) بضم الموحدة بدل النون وسكون الشين ، أى مبشرات « بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » أى قدام المطر . وهى استعارة بديعة . استعيرت الرحمة للمطر ثم رشحت . كقوله ^(١) (بَشِّرْهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) وجعلها بين يديه تنمة لها . لأن البشير يتقدم البشر به . ويجوز أن تكون تمثيلية . و (بشراً) من تنمة الاستعارة ، داخل فى جملتها . ومن قرأ (نشراً) كان تجريداً لها .

(١) [٩ / التوبة / ٢١] .

لأن النّشر يناسب السحاب « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » أى مطهراً ؛ لقوله (١) (لِيُطَهَّرَ كُمْ بِهِ) . وهذه الآية أصل فى الطهارة بالماء .

قال القاضى : وتوصيف الماء به إشعار بالنعمة فيه ، وتتميم للمنة فيما بعده . فإن الماء الطهور أهناً وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته . وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها ، فبواطئهم بذلك أولى « لِنُجِّسِيَّ بِهِ بِلَدَةً مِّمَّتًا » أى يانبأت النبات « وَنُسْفِيَهُ » أى ذلك الماء « مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا » قال الكرخي : خص الأنعام بالذكر ، لأنها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر . ولذلك قدم سقيها على سقيهم ، كما قدم عليها إحياء الأرض . فإنها سبب لحياتها وتعيشها ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

[٥١] (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا)

[٥٢] (فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ » أى كررنا هذا القول الذى هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر « بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا » أى ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه ويشكروا « فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » أى كفران النعمة وجحودها « وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » أى نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة . لكن لم نشأ ذلك ، فلم نفعله . بل قصرنا الأمر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى (٢) (لَيْسَ كُنتَ لِدِ الْعَالَمِينَ نَذِيرًا) . إجلالاً لك وتَعْظيماً ، وتفضيلاً لك على سائر الرسل .

وقال المهابي : أى لكن لم نشأ . لأنه يقتضى تفرق الأمم ، وتكثر الاختلافات .

(١) [٨ / الأنفال / ١١] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ١] .

نجعلنا الواحد نذيراً لكل ليطيعوه أوبقائهم . والكفار يريدون أن يطيعهم الرسل أوبتركوهم على ما هم عليه « فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ » أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق والتشدد والتصبر . ولا تطعمهم فيما يريدونك عليه . وأراد بهذا النهى ، تهيمجه وتهيمج المؤمنين ، وتحريكهم . أى إثارة غيرته وغيرتهم . وإلا فإطاعته لهم غير متصورة .

وقال أبو السعود : كأنه نهى له ، عليه الصلاة والسلام ، عن المداراة معهم ، والتلطف معهم . أى لأن فى ذلك إضعافاً للحق وتغشية عليه ، وطول أمد فى سريانه . ولذا قال « وَجَاهِدْهُمْ بِهِ » أى بالقرآن وما نزل إليك من الحق « جِهَاداً كَبِيراً » أى لا يخالطه فتور ، بأن تلزمهم بالحجج والآيات ، وتدعوهم إلى النظر فى سائر الآيات ، لتزول عقائدهم ، وتسمج فى أعينهم عوائدهم . وهذه الآية من أصرح الأدلة فى وجوب مجادلة المبطلين ، ودعوتهم إلى الحق بقوة ، والتفنن فى حاجتهم بأفانين الأدلة . فإن الحق يتضح بالأدلة . كما أن الشهور تشتهر بالأهلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً)

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » أرسلهما متجاورين متلاصقين ، بحيث لا يتمازجان « هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ » أى شديد العذوبة قامع للظما « وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » أى بليغ الملوحة « وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً » أى حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر « وَحِجْراً مُّحْجُوراً » أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر ، وامتزاجه به ، حتى بعد دخول أحدهما فى الآخر مسافة .

لطيفة :

تلطف هنا المهايى فى تأويل الآية ، بمعنى يصلها بالآية قبلها ، فى أسلوب غريب . قال

رحمه الله (في قوله تعالى وَجَاهَدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) : يؤثر في بواطنهم فيكون (كَبِيرًا) يفوق ما يؤثر في الظواهر (و) إن زعموا أنه كيف يجاهد بالدلائل من بوردشبهات تجاورها ؟ قيل : غاية أمرها أن يكونا كالبحرين المختلفين المتجاورين . وقد رفع الله الالتباس بينهما بعد ما جاور بينهما وهما عسوسان ، فكيف لا يرفع الالتباس بين البحرين المعقولين إذ (هُوَ الَّذِي مَرَجَ) أى جاور (الْبَحْرَيْنِ) اللذين بينهما غاية الخلاف إذ (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) أى قاطع للعطش وهو مثل بحر الدلائل المفيدة للذوق ، القاطعة عطش الطلب (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) أى مبالغ في الملوحة . وهو مثل بحر الشبهات الموجبة للنفرة جدًا لأهل الذوق (و) أما لأهل النظر فقد (جَمَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا) أى ما نماً من الخلط . وهو النظر في مواد المقدمات وصورها ليعلم بذلك صحة الدلائل (و) أما فساد الشبهات فيعلم بالاعتراضات التي لاجواب عنها ، كما أنه جمل بينهما (حِجْرًا) أى منعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر (مَحْبُورًا) أى ممنوعاً أن يمنع . وإن زعموا أن كل فرقة ترى ممسكاته تفيده الذوق وتقطع عنه الطلب ويتنفر عن متمسكات صاحبه أشد من التنفر عن الملح الأجاج ، قيل : ليس هذا بالنظر إلى نفس الدلائل ، بل بواسطة التعصب من جهة الآباء والمشايخ والأصحاب . وقد أوجد الله لإزالة المذرع عنه مثلاً ، في قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا » أى كما أخرج من المقدمات نتائج العلوم « فَجَعَلَهُ » أى البشر « نَسَبًا » أى أصلاً أو فرعاً أو حاشية لقوم « وَصِهْرًا » أى لآخرين يتعصب من أجل نسبه وصهره ، فيعتقد باطلهم حقاً . كذلك أهل الشغب يتعصبون لآبائهم ومشايخهم « وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » أى وهو وإن صعب إزائته ، فإن ربك الذى أمرك بالجهاد الكبير ، قدير على إزائته . كما قدر في النسب والصهر . فلا يبالي المؤمنون لهما . انتهى كلام الهامى رحمه الله .

وهو منزع في باب الإشارة غريب ، أثرناه عنه للطفاته . وأما معنى الآية في عظيم اقتداره سبحانه ، حيث خلق البشر وقسمهم من نقطة واحدة قسمين ذوى نسب ، أى ذكورا ينسب إليهم ، فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان . وذوات صهر أى إناثا يصاهر بهن ، فظاهر . ونظيره قوله تعالى ^(١) (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا)

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ، وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا » أى معينا للشيطان على عصيان ربه . والمراد بالكافر الجنس . فهو إظهار في مقام الإضمار ، لنعى كفرهم عليهم ، ولرعاية الفواصل الكريمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٥٧] (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ الرسالة المفهوم من (أَرْسَلْنَاكَ) « مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » أى يتقرب إليه بالإيمان والطاعة . أى إلى رحمته أو جنابه . فاتخاذ السبيل ، مراد به لازم معناه . لأن من سلك طريق شيء ، قرب إليه ، بل وصل .

قال الزمخشري : مثال (إِلَّا مَنْ شَاءَ) والمراد : إِلَّا فعل من شاء . واستثنائه عن الأجر

(١) [٧٥ / القيامة / ٣٩] .

قولُ ذى شفقة عليك ، قد سعى لك فى تحصيل مالٍ : (ما أطلب منك ثواباً على ما سمعت ، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضعيه) فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب . ولكن صورّه هو بصورة الثواب وسماه باسمه ، فأفاد فائدتين : إحداهما - قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله . كأنه يقول لك : إن كان حفظك للمال ثواباً ، فإني أطلب الثواب .
والثانية - إظهار الشفقة البالغة ، وأنتك إن حفظت مالك اعتدّ بحفظك ثواباً ورضى به ، كما يرضى الثواب بالثواب .

ولعمري إن رسول الله ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه . انتهى .
والاستثناء على هذا متصل ادعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)

« وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ » أى فى دفع شرهم ومكرهم « وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا » أى علماً لا يعزب عنه منها شيء ، فيجزئهم عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

« الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى من أيامه تعالى ، أو أيام الخلق ، قولان للسلف « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » أى علا فوقه علواً يليق بجلاله المقدس . وتقدم تفسيره « الرَّحْمَنُ » مرفوع على المدح . أى هو الرحمن ، وهو فى الحقيقة وصف آخر للحيّ ، كما قرئ بالجر . وقيل : الموصول مبتدأ والرحمن خبره . وقيل : الرحمن

بدل من المستمكن في «استَوَى» وقوله تعالى «فَاسْأَلْ بِهِ خَيْراً» فيه أوجه: منها (الباء) في (به) صلة (اسأل) ومنها أنها صلة (خيراً) و(خيراً) مفعول (اسأل) أى فسل عنه رجلاً عارفاً يخبرك برحمته . أو فسل رجلاً خيراً به وبرحمته . وعليه ففائدة سؤاله هو تصديقه وتأيمده .

قال الشهاب: ويصح تنازعهما - أى اسأل وخبراً - في الباء . وفيه حينئذ نوع من البديع غريب يسمى المتجاذب . وهو كون لفظ واحد بين جملتين يصح جعله من الأولى والثانية . وقد ذكره السعد في أواخر (شرح المفتاح) وهذا مما غفل عنه أصحاب البديعيات . انتهى . ومنها أن الباء للتجريد . كقولك رأيت به أسداً . أى برؤيته . أى اسأل بسؤاله خيراً والمعنى : إن سألته وجدته خيراً .

قال في (الكشف) : وهو أوجه ، ليكون كالتميم لقوله (الَّذِي خَلَقَ) ، الخ فإنه لإثبات القدرة ، مدحاً فيه العلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا [سجدة] وَزَادَهُمْ نُفُورًا)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ » أى من المسمى به ؟ لأنهم ما كانوا يعرفونه تعالى بهذا الاسم ولا يطلقونه عليه . أو الاستفهام للتعجب والاستغراب ، تفنناً في الإباء . أى وما هذه الأسماء والأعلام التى تصدعنا بها ، وتقرع آذاننا بالإذعان لها . « أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ » أى الأمر بالسجود ، المراد به الإذعان بالإيمان « نُفُورًا » أى استكباراً عن الإيمان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)

« تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا » أى نجومًا أو هى البروج الاثنا عشر، التى ترى صورها فى الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة ، وتنتقل فيها الشمس فى ظاهر الرؤية . « وَجَعَلَ فِيهَا مِرَاجًا » وهى الشمس « وَقَمَرًا مُنِيرًا » أى مضيئًا بالليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَنۡ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا)

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً » أى ذوى عقبه يعقب كل منهما الآخر « لِّمَنۡ أَرَادَ أَنۡ يَذَّكَّرَ » أى يتفكر فيستدل بذلك على عظم قدرته « أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » أى يشكر على النعمة فيهما ، من السكون بالليل والتصرف بالنهار . ويكون فيهما بما يقتضيه ما خلقا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)

[٦٤] (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا)

« وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » أى هينين . أو مشيًا هينًا . أى بسكينة وتواضع . لا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون تبعًا لهم أثرًا وبطراً . « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » أى إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله ، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم . سواء كان بصيغة السلام كقولهم (سلام عليكم)،

أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح . وكظم للغيظ . دفعا بالتى هى أحسن
 « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » أى يكون لهم في الليل فضل صلاة وإقامة ،
 كما قال تعالى ^(١) (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)
 وقوله ^(٢) (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) الآية وقوله ^(٣) (أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ ءَانَاءُ اللَّيْلِ
 سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
 وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) و(البيوتنة) لغة ، الدخول في الليل . يقال : بات يفعل كذا يبيت وبيات ،
 إذا فعله ليلاً . وقد تستعمار البيوتنة للكينونة مطلقاً . إلا أن الحقيقة أولى ، لكثرة ما ورد
 في معناها مما تلونا . ولذلك قال السلف : في الآية مدح قيام الليل والثناء على أهله . وفي قوله
 (لِرَبِّهِمْ) إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم . لما أن ذلك هو الذى يستتبع
 أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله و(قِيَامًا) جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

[٦٦] (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ » إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا « أى
 هلاكاً دائماً . والمراد من قولهم ذلك ، فزعهم منها ، ووجلهم الشديد المستتبع لتسكهم
 بالثقوى ، واعتصامهم بالسبب الأقوى . لا مجرد قلقلة اللسان ، بلا تأثر من الجنان .
 فإنهم لم يبتهلوا إلى المولى ، ويتمودوا به من سميها ، إلا لعلمهم بسوء حالها . ومقتضى العلم
 بالشيء إيفاءه حقه والعمل بموجبه . ولذا قال تعالى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا »
 أى موضع استقرار وإقامة .

(١) [٥١/الذاريات/١٧ و١٨] . (٢) [٣٢/السجدة/١٦] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)

«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» أى لم يجاوزوا الحد في الإنفاق ، ولم يضيّعوا على أنفسهم وأهلهم وما يعرفهم بخلاً ولؤماً . بل كانوا في ذلك متوسطين ، وخير الأمور أوسطها .

قال الزمخشري : وصفهم الله بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير . وبمثله أمر رسول الله ﷺ ^(١) (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) . وروى الإمام أحمد ^(٢) عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال (من فقه الرجل رفقه في معيشته) وأخرج أيضاً عن ابن مسعود ^(٣) قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وروى البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة) .

وعن الحسن : ليس في النفقة في سبيل الله سرف . وسمع رجل رجلاً يقول : لا خير في الإسراف . فقال : لا إسراف في الخير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)

[٦٩] (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا)

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٩] .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٤٢٦٩ (طبعة المعارف) .

[٧٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » أى لا يشركون بعبادة ربهم أحداً ، فالدعاء بمعنى العبادة « وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ » أى حرماً بمعنى حرّم قتلها . ومنه الوأد وغيره « إِلَّا بِالْحَقِّ » أى الزيل لحرمتها وعصمتها « وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ » أى ما ذكر من هذه القبائح العظام « يَلْقَ أَثَامًا » أى يجد فى الآخرة جزاء إثمه « يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » أى ذليلاً محقراً جامعاً لعذابى الجسم والروح « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال الحافظ ابن كثير : وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تعارض بين هذه وآية النساء^(١) (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) الآية ، فإن هذه ، وإن كانت مدنية ، إلا أنها مطلقة . فتحمل على من لم يتب . لأن هذه مقيدة بالتوبة . ثم قال تعالى^(٢) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الآية ، وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . كما ذكر مقررأ من قصة الذى^(٣) قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث . ثم قال : وفى معنى قوله تعالى (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) قولان : أحدهما - أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، فى هذه الآية : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات . فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وكذا قال سعيد بن جبیر : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ،

(١) [٤ / النساء / ٩٣] . (٢) [٤ / النساء / ٤٨] و [٤ / النساء / ١١٦] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ،

حديث رقم ١٦٢٩ ، عن أبى سعيد الخدرى .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٦ (طبعتنا) .

وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بفكاح الشركات فكاح المؤمنين . وكذا قال الحسن : أبدلهم بالعمل السيئ العمل الصالح . وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وبالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً .

والقول الثاني : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح ، حسنات . وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ماضى ، ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . انتهى .
ولابن القيم رحمه الله تعالى في (طريق الهجرتين) في هذا المقام بسط حسن وتناظر مقنع ، لا بأس بإيراده ، لعظم فائدته .

قال رحمه الله (بعد شرحه لحديث فرح الله بتوبة عبده ما مثاله) : وهاهنا مسألة ، هذا الموضع أخص المواضع ببيانها . وهى أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً ، فهل تحصى تلك السيئات وتذهب ، لا له ولا عليه ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه ، من المفسرين وغيرهم ، قديماً وحديثاً . فقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، لكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . قال ابن عطية : يجعل أعمالهم ، بدل معاصيهم الأولى طاعة . فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم ، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن . ورد على من قال هو في يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث في كتاب مسلم ^(١) من طريق أبي ذر يقتضى أن الله سبحانه يوم القيامة ، يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين ، بدل سيئاته حسنات . وذكره الترمذى والطبرى . وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية .

قال ابن عطية : وهو معنى كرم العفو . انتهى .

وسأأتى ذكر الحديث والكلام عليه .

وقال الثعلبى : قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد : (يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) يبدلهم الله تقبيح أعمالهم في الشرك ، محاسن الأعمال في الإسلام . فيبدلهم بالشرك وبقتل المؤمنين ، قتل المشركين . وبالزنى ، عفة وإحصاناً .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعنا) .

وقال آخرون : يعنى يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم ، حسنات يوم القيامة . وأصل القولين ، أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة ؟ فن قال إنه في الدنيا ، قال هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها . وهي حسنات ، وهذا تبديل حقيقة . والذين نصرروا هذا القول احتجوا بأن السيئة تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا . فإنها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب ، فكيف تنقلب محبوبه مرضية ؟

قالوا : وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله ^(١) (رَبَّنَا فَاعْفُرْ أَمَّا ذُنُوبُنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا) وقوله ^(٢) (وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقوله ^(٣) (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيح ^(٤) من حديث قتادة عن صفوان ابن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب ! أعرف قال : فإنى قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته) .

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل .

فهذا الحديث المتفق عليه ، والذي تضمن العناية بهذا العبد ، إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة . ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة . فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها .

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٢٥] . (٣) [٣٩ / الزمر / ٥٣] .

(٤) أخرجه البخاري في : ٤٦ - كتاب المظالم والنصب ، باب قول الله تعالى : ألا لعنة

الله على الظالمين ، حديث رقم ١٢٠١ .

وأخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٢ (طبعنا) .

وقد قال الله في حق الصادقين ^(١) (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي أَلْزَمُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) فهو لا خيار الخلق . وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها . وأما السيئات ، أن تلغى ويبطل أثرها . قالوا : وأيضاً ، فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق الثائب ، لكان أحسن حالا من الذي لم يرتكب منها شيئاً . وأكثر حسنات منه . لأنه إذا أساء شارك في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ، ثم انقلبت له حسنات ترجع عليه . وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لاسيئة له ؟ قالوا : وأيضاً فكأن العبد ، إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها ، فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها ، بل يبطل أثرها ويكون لاله ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها . فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها ، فإنها لا تنقلب حسنات فإن قلتم : وهكذا الثائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته ، لم ننازعكم في هذا . وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضي ثواباً وجودياً . واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة ، بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون في السيئة المحققة . وهي التي قد فعلت ووقعت . فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة . قالوا : ولهذا قال تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فأضاف السيئات إليهم ، لكونهم باشروها واكتسبوها . ونكر الحسنات ولم يضيفها إليهم ، لأنها من غير صنعهم وكسبهم ، بل هي مجرد فضل الله وكرمه . قالوا : وأيضاً ، فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم . فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات . والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها ، كما قال تعالى ^(٢) : (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) وأما ما كان من غير الفاعل ، فإنه يجعله من تبدله هو ، كما قال تعالى ^(٣) (فَبَدَّلْنَا هُمُ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ) فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات ، دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لأنهم فعلوه من تلقاء

(١) [٣٩ / الزمر ٣٥] . (٢) [٢ / البقرة ٥٩] . (٣) [٣٤ / سبأ ١٦] .

أنفسهم . وإن كان سببه منهم وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .

قالوا: وبدل عليه مارواه (مسلم) ^(١) في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة . وآخر أهل النار خروجا منها . رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه . فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا . فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة) قالوا : وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة . فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة ، بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التي عملوا حسنات .

قالوا : وأيضا فالجزء من جنس العمل . فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة ، بدلها الله من صف الحفظة ، حسنات جزاء وفاً .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر ، على صحة قولكم ، وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات ، قد عذب عليها في النار ، حتى كان آخر أهلها خروجا منها فهذا قد عوقب على سيئاته . فزال أثرها بالعقوبة . فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه . فإن الكلام في التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب . فأين أحدهما من الآخر ؟ .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة ، فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة ، التي لولا الحسنة لحلت محلها .

قالوا: وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم ، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة وتنكير الحسنات وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب . ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها ، مقارنا لكسبهم إياها بفضله ؟ .

قالوا : وأما قولكم إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف ، لأنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها ، فهذا لا دليل لكم . فإن الله خالق

(١) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣١٤ (طبعتنا) .

أفعال العباد - فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلاً وكسباً .
قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكابدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم
أبدلها الله كذلك في صحف الأعمال . فهذا حق ، وبه نقول ، وإنه بدلت السيئات التي كانت
مهيئة ومعدة أن تحل في الصحف ، بحسنات جعلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ،
ومحط نظر الفريقين . وإليك أيها المنصف الحكم بينهما . فقد أدلى كل منهما بحجته ، وأقام
بينته . والحق لا يعدوها ولا يتجاوزهما . فأرشد الله من أعان على هدى ، فنال به درجة
الداعين إلى الله ، القاعنين ببيان حججه ودينه . أو عذر طالبا منفرداً في طريق مطلبه ، قد
انقطع رجاءه من رفيق في الطريق . فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وألا يقطع
عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه ، فقد رضى بالدون . وحصل على صفقة
الغبنون . ومن شمر إليه ورام ألا يعارضه ممارض ، ولا يتصدى له ممانع ، فقد منى نفسه
الحال . وإن صبر على لأوائها وشدتها ، فهو والله الفوز المبين ، والحظ الجزيل وماتوفيق إلا بالله
عليه توكلت وإليه أنيب .

فالمصواب ، إن شاء الله في هذه المسألة ، أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا يتقلب
حسنة . والحسنة إنما هي أمر وجودي يقتضى ثواباً ولهذا كان تارك النهيات إنما يثاب على
كف نفسه وحبسها عن موافقة النهي . وذلك الكف والحبس أمر وجودي . وهو متعلق
الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلاً ، ولم يحدث به نفسه ، فهذا كيف يثاب على تركه ؟
ولو أتيب مثل هذا على ترك هذا الذنب ، لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله
وذلك أضماف حسناته بما لا يحصى . فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا
ينضببط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ وهذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لا بد أن تكون
أمراً وجودياً ، فالتائب من الذنوب التي عملها ، قد قارن كل ذنب منها ، ندماً عليه ، وكف
نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب ،
وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة ، قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض

المفسرين : يحمل مكان السيئة التوبة . والحسنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها ، فتوبته منها حسنة حلت مكانها . فهذا معنى التبديل . لأن السيئة نفسها تنقلب حسنة . وقال بعض المفسرين في هذه الآية : يمطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة . وعلى هذا ، فقد زال بحمد الله الإشكال . واتضح الصواب . وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبي ذر ، وإن كان التبديل فيه في حق المصرّ الذي عذب على سيئاته ، فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته . فإن الذنوب التي عذب عليها المصرّ ، لما أزال أثرها بالعقوبة ، بقيت كأن لم تكن ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة . لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها ، مع العقوبة ، لا يقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح ، أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة ، حسنات ، فلا بُدَّ تبديل بعد زوالها بالتوبة حسنات ، أولى وأحرى . وتأثيرُ التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة . لأن التوبة فعل اختياريّ أتى به العبد طوعاً ومحبة لله وفرقاً منه . وأما العقوبة ، فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره ، بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب ، أعظم من تأثير المصائب التي تقاله بغير اختياره . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا)

« وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا » أى ومن يترك المعاصي ويفدم عليها ويدخل في العمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مرضياً عنده ، مكفراً للخطايا ، محصلاً للثواب . قرره الزمخشري .

والآية صريحة في أن العمل الصالح والمثابرة عليه قولاً وفعلًا ، شرط في صحة التوبة وقبولها . وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح . فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أن التوبة استغفار بلسان ، أو تخشع بأركان ، ولا عمل صالح له يرضى الرحمن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)

[٧٣] (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)

«وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» أى لا يحضرون الباطل . يقال (شهد كذا) أى حضره .

ف (الزور) مفعول به بتقدير مصاف أى محالّه . و (يشهدون) من الشهادة . فلزور منصوب على المصدر أو بنزع الخافض أى شهادة الزور أو بالزور . وقد أشار الزخشرى للوجهين بقوله : يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يحضرونها ولا يقربونها ، تنزهاً عن مخالطة الشر وأهله وصيانة لدينهم عما يثله . لأن مشاهدة الباطل شرك فيه . ولذلك قيل فى النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة (هم شركاء ، فاعلمه فى الإثم) لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به ، وسبب وجوده ، والزيادة فيه لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة ، ورغبتهم فى النظر إليه . ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور . انتهى وهى الكذب متعمداً على غيره قال المبرد فى (الكامل) : و يروى عن ابن عباس فى هذه الآية (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ)

قال : أعياد المشركين . وقال ابن مسعود : الزور الغناء . فقيل لابن عباس : أو ما هذا فى الشهادة بالزور ؟ فقال : لا ، إنما آية شهادة الزور ^(١) (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » أى اتفق مرورهم بأهل اللغو ، وهو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح ، و مرّوا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم كقوله تعالى ^(٢) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) ويدخل فى ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب ، والسكناية عما يستهجن التصريح به وذلك لأن (كراماً) جمع كريم بمعنى مكرم لنفسه وغيره بالصفح ونحوه « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى وعظوا بها وخوفوا « لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » أى بل أكبوا عليها سامعين بأذان واعية ، محتلين لها

(١) [١٧ / الإسراء / ٣٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

بعميون راعية . وإنما عبر بنفى الضد ، تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإعراض والإباء والنفرة، المستعار لها (الحرور) على تلك الحالة استعارة بديمة. لما فيها من إسقاطهم عن الإنسانية إلى البهيمية ، بل إلى أدنى منها ، لأنها تسمع وتبصر ، وقد نفيا عنهم .

وفي التنزيل الكريم من توصيف المؤمنين بوجل قلوبهم لذكره تعالى ، وزيادة إيمانهم إذا تلى عليهم الذكر الحكيم ، آيات عديدة . ولذا قال قتادة فيهم : هم قوم عقلوا عن الله ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . ويرحم الله الحسن البصري ، فقد قال : كم من رجل يقرؤها ، ويخر عليها ، أصم أعمى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ » أى أولاداً وحفدة ، تقر بهم العميون وتسر بمكانهم الأنفس ، لحيازتهم الفضائل واتصافهم بأحسن الشرائع . و (قرة العين) إما من القر وهو البرد . لأن دمة السرور باردة ، ولذا قيل في ضده (أسخن الله عينه) أو من القرار لعدم النظر لغيره ، وجوز في (من) أن تكون بيانية وعليه قول كثير من أن فيه الدعاء بصلاح الزوجات . وقوله تعالى « وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » أى أئمة . اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ، مع رعاية الفواصل . أى يقتدى بنا في الخير . أو هداة دعاء إلى الخير . فإن ذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً . قال في (الإكليل) : في الآية طلب الإمامة في الخير . وفي (العجائب) للكرمانى : قال القفال وغيره من المفسرين : في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب . انتهى .

وكذا قال الزمخشري ، عن بعضهم : إن فيها ما يدل على أن الرياسة في الدين ، يجب أن تطلب ويرغب فيها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)

[٧٦] (خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

[٧٧] (قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)

« أُولَئِكَ » إشارة إلى المتصفين بما ذكر . خبر لـ (عباد الرحمن) أو مبتدأ خبره « يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا » أى على مشاق المجاهدات فى الدعوة إلى الخيرات ، والدأب على الخيرات ، واجتناب المحظورات . و (الغرفة) الدرجة العالية من المنازل فى الجنة « وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا » أى تحييمهم الملائكة وتسلم عليهم . أو يحسبى بعضهم بعضاً ويسلم عليهم . والقصد أنهم يلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » لسلامة أهلها عن الآفات ، وخلودهم أبد الآباد . « قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ » أى لا يبالى بكم ولا يقيمكم إلا إذا عبدتموه وآمنتم به وحده . فالدعاء بمعنى العبادة ، كما مر .

ثم أشار إلى أنه كيف يمكن العبء بهم ، أو يتصور ، وقد وجد منهم ما ينافيه ، بقوله تعالى « فَقَدْ كَذَّبْتُمْ » أى بما جاءكم من الحق . أى وقد نلى عليكم سنة من كذب وأصر « فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا » (اللزام) مصدر مؤول باسم الفاعل أتى به للمبالغة . أى فسوف يكون هذا النبأ أو الذكر الحكيم ، أو الأمر الجليل ، أمر الرسالة ، لازماً وثابتاً . يفتح من الحق رتاجاً . وتدخل الناس فى دين الله أفواجا . ولقد صدق الله وعده . ونصر عبده وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . نسأله تعالى خير ما عنده .

تم هذا الجزء بحمدته تعالى ، ضحوة السبت فى ٨ صفر الخير ، فى سدة جامع السنانية ، بدمشق عام - ١٣٢٥ - بيد جامعه الفقير محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح ، القاسمى الدمشقى عفا عنه مولاه . آمين .

تم الجزء الثانى عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى ، الجزء الثالث عشر ، وفيه تفسير : (٢٦ - الشعراء ، ٢٧ - النمل ، ٢٨ - القصص ، ٢٩ - العنكبوت ، ٣٠ - الروم ، ٣١ - لقمان ، ٣٢ - السجدة ، ٣٣ - الأحزاب) .